## 5_ جمع المعلومات بوعي وبصيرة

بعد أن يضع الباحث المخطط الشمولي للدراسة والبحث يبدأ بالقراءة الهادفة وجمع المعلومات المتعلقة به سواء من قريب أو بعيد، وجب عليه أن يعرف لكل كتاب قيمته مع توجهات كل مؤلف ليحقق أقصى استفادة منه، ويعرف مواطن القوة والضعف فيه.

وعبر كل القرون من عصر التدوين الى الآن لم يخل كتاب من نقد ورد وتمحيص، فقد بين علماء الإسلام كثيرا منها لما لهم من روح النقد والحب في الحق والتضحية للأمة، وهذه أمثلة على ذلك من كتب مشهورة.

ككتاب "وفيات الأعيان وأنباء الزمان" لابن خلكان (681هـ)، فقد ذكر المؤرخون كابن كثير أنه يغضي الطرف عن مساوئ المترجَمين عنده، وخاصة الأدباء منهم وذلك فيما يتعلق بالسلوك والعقائد والمذاهب التي ينتحلونها، وكان ابن كثير يكثر في تعليقاته له [هذا على عادته من تساهله وغضه من عيوب مثل هذا الشقي].

ومثال آخر هو ابن النديم صاحب " الفهرست" فقد كان ذو ميل للتشيع، وكان إذا ترجم لمن توجهه التشيع يعلي من شأنه ويثني عليهم ويصف غيرهم بالعوام.

ومثال ثالث وهو الحافظ الحجة شمس الدين الذهبي، فقد نبه تلميذه تاج الدين السبكي إلى ما ينبغي أن ينتبه إليه في كتبه ، فقال : " شيخنا الذهبي -رحمه الله- له علم وديانة، وعنده على أهل السنة تحمل مفرط، فلا يجوز أن يعتمد عليه" .

وكذلك نجد من المعاصرين كثيرا من مثل هذا، فالماركسيون والرأسماليون ديدنهم الحط من قيمة علماء الإسلام والرفع من قدر أصحاب نحلهم من الجهلة ، والأمر كذلك بين الدارسين الإسلاميين فقد أثرت عليهم المذهبية فحملت بعضهم على بعض، ما بين سني وصوفي، وحنفي وأشعري، لذلك وجب على الباحث الإنتباه.

ومن أمثلة ذلك كتاب"الأعلام" لخير الدين الزركلي، مع لهذا الكتاب من وزن وقيمة وما لصاحبه من أدب وكياسة، إلا أنه عندما يأتي للمعاصرين يترجمهم لا يصف بعض الناس بما هو معهود في تراجمهم، ولا يذكر النحلة والمذهب والدين، وكأنه قد تأثر بالقومية العربية . لهذا فليحتط الباحث من اعتماد تراجمه للمعاصرين.

إن معرفة الباحث لقيمة كل مصدر أو كتاب هامة جدا لأنها موصلة له إلى الحق، لذا كان مما يتوجب عليه أن يعرف ما زاده على غيره أو تفرد به، أو أصالته أوعدم أصالته في ميدانه، فإذا لم يكن في الكتاب جدة

في الوضع والمبنى فلا يضيع الباحث الوقت فيه، وبعد ذلك يجمع مادته بيقظة وحذر ووعي، فيكتب كل ما يمكنه أن يتفيد منه من قريب أو بعيد ، وذلك بأي طريقة تناسبه وتوالمه. وهناك كتب قد عنيت بهذا ككتاب "كيف تكتب بحثا أو رسالة" لأحمد شلبي . فيأخذ الباحث ما يراه سهلا المنال مما أشار إليه الفضلاء من الكاتبين، إلا أنه ينصح بكتابة كل شيء محتمل النفع والاستفادة منه، وقد أصل لهذا علماء اهل الحديث بقولهم (إذا كتبت فقمش وإذا حدثت ففتش) .

[التقميش : الكتابة عن كل أحد وعن كل شيء]

وقول يحيى بن معين (صاحب الانتخاب يندم، وصاحب المشج لا يندم)

[المشج: أن يكتب كل شيء وبذلك يجد كل المادة بين يديه يرجع إليها متى شاء.]

وكان الإمام الزهري رحمه الله يطوف على العلماء ومعه الألواح والصحف فيكتب كل ما سمع، وبذلك صار أعلم الناس يحتاج إليه دون غيره.

وكذلك حكم من يتصدى لبحث أو تصنيف أو كتابة رسالة، ألا يفارق أوراقه وأقلامه، في غدوه ورواحه، وليله ونهاره، وحضره وسفره، ويقيد ما يقرأه أو يسمعه أو يستنبطه. مما له علاقة بما هو بصدده.

### 6_ إحكام النظر في المادة العلمية وترتيبها وصياغتها

بعد فراغ الباحث من جمع مادته العلمية وتوثيقها ونسبتها إلى مظانها التي اقتبسها منها، جزءا وصفحة، وكتابا وبابا، لابد له من طول الملاحظة والنظر وتقليب الرأي فيه، فيدون مع كل فكرة ما يستنبطه، وإلى جانب كل قول ما يستفيده، ثم يبدأ بصياغة مادته المتوفرة بأسلوبه الخاص، ويجب عليه أن يراعي عرض الفكرة الواردة حسب الأقدم فالأقدم ممن طرحها أو تعرض لها، ومن ولادتها إلى نموها واتساعها ونضجها وإحكامها، مع ما اعتراها من نقد ومعارضة او تأييد أو موافقة، أو تفسير وتعليل وبيان وتفصيل، فيقدم أصل المسألة من القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية من مصادرها المعتمدة حسب الأقدم والأقوى وما دون ذلك، مستبعدا ما لا يصح الاعتماد عليه، مع الإشارة إليها حتى لا يُظَنَّ أنه غفل عنها او لم يتوصل إليها.

ومن هذا المنهج يتبن لنا تطور الأفكار وأقدار أهل العلم ومراتبهم فيه ، وكذلك أثر الزمان والمكان. وبه كذلك يتبين موضع الخلل والنقص في الفكرة ومن تممه وعدله أو أصلحه ، ومنه يظهر قيمة عمله وأهمية تصنيفه

ومدى الحاجة إليه. لذلك وجب على الباحث عزو الأفكار إلى أصحابها، وإذا نقل فكرة عن مصنف أن يستوعبها كلها ويدرك قائلها من ناقلها، وصاحبها من منتحلها.

ونجد مثل هذا المنهج عند الأئمة المعتبرين من المتقدمين والمتأخرين من علماء الإسلام، وبل وعند غيرهم كالفيلسوف "ديكارت" في قواعده و"مقالته في المنهج".

ثم إن علماء الإسلام رحمهم الله بتتبعهم لهذا المنهج فإنه قد مكن كل جيل منهم أن يضيف شيئا جديدا، ويصلح ويهذب حتى وصلت إلى كمالها وإحكامها بالجملة وبلغوا الغاية في ذلك.

يقول عبد ربه الأندلسي " ثم إني رأيت آخر كل طبقة، وواضعي كل حكمة، ومؤلفي كل أدب، أعذب ألفاظا وأسهل بنية وأحكم مذهبا وأوضح طريقة من الأول، لأنه -الآخر- ناكص متعقب، والأول باديء متقدم". ويظهر لنا هذا جليا إذا نظرنا مثلا إلى كتاب "الرسالة" للإمام الشافعي في أصول الفقه وقارناه مع آخر متأخر ك"مفتاح الوصول" للتلمساني او "المنهاج للبيضاوي" فإننا نجد الإحكام عن الآخِرين مع التدقيق والتفصيل، مع أن الرسالة أسهل منالا وأكثر أمثلة، وأقعد دلالة على مآخذ هذا العلم وغايته.

وتجدر الإشارة إلى أنه لا حرج على الباحث إذا ألهم أفكارا، أو اهتدي إلى شيء جديد لم يسبقه إليه أحد أن ينبه عليه فيقول (هذا لم أره لغيري حسب علمي)

وبهذا كله تظهر قيمة الجهود الكاملة المستقرئة في البحث وتتبين الجهود الناقصة المتعجلة.

## 7_ الأمانة في نقل الأفكار وعزوها

ينبغي للباحث أن يلتزم الأمانة العلمية في نسبة الأقوال والأفكار إلى أصحابها دون أدنى تردد من صغير أو كبير، من مسلم أو كافر ، من بر أو فاجر من متقدم أو متأخر،

وعلماء الإسلام الأقدمون قد تمثلوا الأمانة العلمية وضربوا فيها المثل الأعلى. وذلك لأن القرآن الكريم قد أرساها وقعّد لها، فقد ذكر عقائد الأمم الضالة كما هي، بما فيها، ثم ردها وفندها، وأخبر عن أحوال المنافقين في إسرارهم وإعلانهم ورد عليهم، وعلى مثل هذا سار عليه علماء الإسلام سواء فيما بينهم أو مع غيرهم، فينقلون الحجة كما هي دون تغيير فيها، ثم يردون عليها نقضا وتخطئة، ولنا في كتب العلماء مثل الأشعري والباقلاني وفخر الرازي والغزالي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم خير شاهد على القمة في الصدق والأمانة، واستيعاب الفكرة ولو

كانت ضالة، لبيان وجه الضلال فيها، ولذلك قالوا (ناقل الكفر ليس بكافر) ليرفعوا الحرج عن المناظر والمحاور وليوفوا قبل ذلك الأمانة حقها.

وبأمانة هؤلاء وصلت إلينا أفكار لا توجد عند غيرهم، لأن كتب أهلها قد اندثرت وبادت، وأصبح المعول في معرفتها على كتب هؤلاء.

وتجدر الإشارة إلى أنه يجب الحذر من المعاصرين، إذ أنه وجد منهم بعض المنتمين إلى الدراسات الإسلامية يعبث بالنصوص نقلا أو بترا او حذفا لما لا يعجبه وما لا يتفق وتوجهه، أو أن يأتي على حججه ودعاويه بالهدم والسقوط بذلك في بعض كتب الثرات التي يخرجونها.

وقد ذكر الإمام تقي الدين السبكي مثل هذه الأمور في زمانه، حيث أورد فعل أحد من المجسمة حين أتى على شرح صحيح مسلم للإمام محيي الدين النووي وحذف من كلامه ما تكلم به على أحاديث الصفات، وذلك لأن النووي أشعري العقيدة ، ولم تحمل قوى هذا الكاتب أن يكتب على الوضع الذي صنفه به مصنفه. واعتبر- تقي الدين السبكي- فعل هذا الفاعل من الكبائر لما يحمله من التحريف والتزييف.

ومثل هذا في أيامنا للمعلق أن يعلق عليه ويناقشه، ويرد عليه بحجة واضحة، أما أن يحذف منه فلا وألف لا، مهما كان نوع الكلام المحذوف.

وقد وجد بعضهم ممن يقحم رأيه الفاسد في نصوص لها قيمتها ووزنها دون إشارة منه على أنه من المحقق أو الناشر أو الطابع، إدعاء منه للفهم وللاجتهاد العلمي العظيم، وهذا من العمل السقيم والخطر العظيم لأنه يزيد على صاحب النص بما ينسبه إلى الجهل والسخف.

### 8_ الفهم الصحيح للنصوص وتحديد مدلولاتها

من أمانة الباحث العلمية أن يلتزم بضوابط الفهم السليم للنصوص وأن يحدد مدلولاته على هدي هذه الضوابط وما ترشده إليه. ولذلك لأنّ أخطر شيء في المعرفة والعلم الحق، أن يجعله تابعا لرأيه وهواه، فينسلخ من النزاهة والحيادية ، ولهذا جاء في القرآن التحذير من الانسياق وراء الهوى والرأي، وتظهر صورة هذا الميل في تصيُّد أراء شاذة أو أقوال ضعيفة أو تفيسرا منحرفا، وقد يكون ذلك نصرا لشهوة خفية أو تسويغا لحالة راهنة أو إرضاء لفئة أو فرد معين.

والقرآن الكريم قدد قرر وفرض على المسلم أن يقول الحق ولو على نفسه فقال تعالى ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وأكد ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في بيعته لصحابته، : "بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة... وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم".

وأكد علماء الاسلام على قضية في هذا الباب، لها شأنها العلمي والمعرفي عندما قالوا 'من تتبع رخص المذاهب خرج بلا دين'

إن الفهم السليم لنصوص القرآن والسنة قد نشأت مع السلف الصالح ونشأت بذلك ضوابط الفهم الصحيح، فكان كلما ظهر فهم سقيم وفرقة منحرفة قيض الله لها من يرد عليها ويطفيء شعلتها. وأنتج بذلك الأوائل رضي الله عنهم بنزاهتهم وموضوعيتهم وإخلاصهم علما جليلا لا نظير له لفهم النص فهما صحيحا انطلق لفهم القران الكريم والسنة المطهرة وعمموه على غيرهما من العلوم لأن قواعد هذا العلم عقلية فطرية اسقرائية، إنه علم أصول الفقه.

اذ أنه -علم أصول الفقه- يبحث أساسا حول التأويل للنص وصرفه عن ظاهره الى الوجه السليم، ومتى يجوز ذلك ومتى لا يجوز، والضوابط المصاحبة له، وكذلك تدور مباحثه حول العموم والخصوص والمطلق والمقيد، والأمر والنهي ، والناسخ والمنسوخ، والقياس وقواعده. لدا صار واجبا على كل من يتكلم في علم من علوم الشريعة أن يتسلح بشيء منه بل بحد أدنى لا بد منه، لذلك كان من لا يعرف بنية هذا العلم وجزءا من قواعده، غير أصيل في فهمه للشريعة الإسلامية، وسيقع في اشكلات كثيرة، وإذا اجتهد لا يخلو أن يَخبط أو يَخلط ولا يبعد أن يُحل حلالا أو يُحرم حراما.

وحري بنا التطرق الى نوع آخر من الموضوعية والنزاهة في فهم النصوص ألا وهو الإحتهاد المباشر وأخذ الأحكام من نصوص القرآن والسنة مباشرة، إذ أن الأمر لا بد له من ضوابط، حتى لا يفلت الزمام ويتحلى كل مأفون بحلية الإمام. واستلهام النصوص والأخذ منها مباشرة لا يكون إلا بعد الاطلاع على سابق الآراء ومواقف الأئمة منها، ثم يقوم المجتهد على بصيرة ويقين. ولا يذهب إلا إلى ما يراه حقا وقد مضى الأئمة من الأصوليين وغيرهم على أنه لا بد للمفتي والمجتهد من معرفة إجماع السلف وخلافهم في الأحكام الشرعية، وهذا يعني معرفة

ما ذهبوا إليه في تفسيرهم للنصوص، وذلك لأنهم ما تركوا آية إلا تعرضوا لأحكامها وأفهامها، ولا حديثا إلا استنبطوا منه إن كان صالحا لذلك، فكل حديث لم يعرفوه وخاصة من الحديث الصحيح فهو غير موجود.

وبعد أن يلتزم الباحث بهذه الضوابط في الفهم وفي الاستنباط، يجب عليه ألا يتعجل في إصدار الأحكام قبل تمام النظر فيما هو بصدده، ويتجنب التهور والنزق في ذلك ولتذكر قول الله تعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) [ق : 18]. ولذلك لما للكلمة المدونة من خطر عندما تكون مباحا لكل الناس ولهذا جاء التحذير من من الكلمة المنحرفة الضالة المضلة شديدا في نصوص كثيرة منها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب" .

## 9_ الرجوع في كل علم إلى أهله

خليق بالباحث الحق أن يرجع في كل علم إلى أهله، ويأخذ معلوماته من مصادره الأصلية المعتمدة في ميدانها، لأن أهل كل علم مقدمون على غيرهم ممن ليس لهم تضلع فيه، ففي علوم القرآن والقراءات يرجع إلى أهل هذه العلوم، وفي الحديث إلى أهله المنقطعين له، وفي الفقه إلى أئمته، وفي أصول التفسير إلى أربابه وفحوله، وفي اللغة إلى أعلامها، وفي تراجم الرجال وضبط أنسابهم إلى أعيانه ومصنفاتهم، وفي التاريخ إلى المبرزين فيه.

وقد حرر الزمخشري رحمه الله فائدة جميلة في معرض تفسيره قول قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ فقال "وفيه فائدة جليلة وهي أن على كل آخذ علما أن لا يأخذه إلا من أقتل أهله علما، وأنحرهم دراية وأغوصهم على لطائفه وحقائقه، وإن احتاج أن يضرب إليه أكباد الإبل، فكم من آخذ عن غير متقن قد ضيع أيامه، وعض عند لقاء النحارير أنامله".

ومما ينبغي الاشارة إليه مسألة النقل في المذاهب الفقهية والعقدية، والأديان والفرق والمذاهب السياسية، القديمة والحديثة، فيرجع فيه إلى مصنفاته الصادرة عن أهله.

إن ملاحظة هذا الأمر الهام والأساسي قد كشف لنا زيف الخطة التي صار عليها كثير من الكاتبين عن الاسلام في هذا العصر إذ تركوا مصادر العلوم المتقنة، وتصيدوا الاقوال من هنا وهناك بقيل، ويقال، ويحكى، ويروى، دون تأكد وتثبت. وسار كثير من الناس وراء شهرة الأسماء والألقاب فخبطوا وخلطوا، وصار كل علم يؤخذ على غير أهله.

فعلى الباحثين في الدراسات الاسلامية الاستفاقة والرجوع الى الطريق السوي القويم دونما تأخر أو تردد، فالخوض في الباطل لا يميت الحق، بل يحرم الانتفاع بأنواره، ويبقينا في أوهام الحيرة، ومآسي الضلال ولا يتقدم الفكر والعلم إلا بالمنهج الصحيح.

## ١٥_ النقد النزيه المتزن.

إن الباحث الراسخ لا يقف مكتوف الأيدي أمام النصوص دونما نظر وتأمل، بل له حق الفهم عن الله ورسوله ، والاستنباط من نصوص الشريعة، والنقد والتقويم لغيرهما، ولا يُدخل في بحثه نصا رأى فيه ما يستحق التقويم أو بيان خطإ إلا قومه وأصلحه ، وإن أود نصوصا لم يفهمها صرح بذلك وبينه، لإنه إن لم يبين ذلك فإنه رضيها وأصبح متحملا لمسؤوليتها.

ولعلماء الاسلام قواعد تصب في هذا الصدد منها قول الإمام مالك رحمه الله " كل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر" وأشار بيده نحو قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن من أهم ما ميز هذه الأمة المباركة هو منهجها في النقد العلمي والذي على أساسه قام منهجها التوثيقي، والاستنباطي والفكري عامة، عند المحدثين والفقاء والأصوليين وغيرهم في جميع العلوم.

وإن روح النقد والتقويم يجب أن يمارسها الباحث النزيه في الدراسات الاسلامية وفي غيرها، على نفسه وعلى غيره، ومن ممارستها على نفسه أن يعيد النظر فيما كتبه وحرره مرارا وتكرارا مراجعة له وتقويما لأي أخطاء ، ومن تمام التهذيب والتحرير، المذاكرة بمضمونه مع أهل العلم من الشيوخ والنظراء والأقران، بل مع الطلاب، ولهذا أكد العلماء عبر كل الحقب على أهمية المذاكرة في التفطن إلى المسائل والوصول إلى الحق.

هذه عشرة كاملة تتعلق بالموضوع والمضمون، يمكن الزيادة عليها لمن فتح الله عليه، فنسأله تبارك وتعالى، وهو الفتاح العليم، أن يفتح علينا فتحا مبينا ، ويهدينا صراطا مستقيما.